سُورةُ عَبَسَ

من آية (1) إلى آية (16)

الجزء الأول

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ سُورةَ (عَبَسَ).

سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بلَفظِ «عَبَسَ» في قَولِه تعالى: عَبَسَ وَتَوَلَّى. توقيفي.

قال الألوسي: (وتُسمَّى سورةَ الصَّاخَّةِ، وسورةَ السَّفَرةِ، وسُمِّيَتْ في غيرِ كتابٍ سورةَ الأعمى) اجتهادي.

بيانُ المكّيِّ والمدَنيّ:

سُورةُ (عَبَسَ) مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ.

مَقاصِدُ السُّورةِ:

■مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

⇦حقيقةُ دَعوةِ القُرآنِ، وكرامةُ مَن ينتَفِعُ بها، وحَقارةُ مَن يُعرِضُ عنها.

موضوعاتُ السورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:

1- عِتابُ اللهِ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عتابًا رقيقًا، على ما حَدَث منه مع ابنِ أمِّ مَكتومٍ الأَعمى.

2- الثَّناءُ على القُرآنِ، وأنَّه ذِكْرى ومَوعِظةٌ لِمَن عَقَل وتدبَّرَ.

3- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، بذِكرِ أصلِ نَشأةِ الإنسانِ، ونِعَمِ اللهِ عليه، وتَيسيرِ أسبابِ حَياتِه.

4- التَّذكيرُ بأهوالِ يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.

■لم يذكر في هذه السورة اسم الجلالة.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى (10)

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿1﴾

سَبَبُ النُّزولِ: عن مَعمَرٍ، عن قَتادةَ، عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عنه- في قَولِه: عَبَسَ وَتَوَلَّى، قال: ((جاء ابنُ أُمِّ مَكتومٍ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو يُكَلِّمُ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ، فأعرَضَ عنه؛ فأنزل اللهُ عَبَسَ وَتَوَلَّى، فكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ذلك يُكْرِمُه))، قال قَتادةُ: وأخبَرَني أنَسُ بنُ مالكٍ قال: رأَيْتُه يومَ القادسِيَّةِ وعليه دِرعٌ، ومعه رايةٌ سَوداءُ، يعني: ابنَ أُمِّ مَكتومٍ

(عَبَسَ وَتَوَلَّى) أي: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ غَضَبًا. موسوعة التفسير

■العبوس هو شد وجمع جلد الجبين وما بين العينين لإظهار الضيق.

﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ ﴿2﴾

(أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى) أي: بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ. موسوعة التفسير

وكان -ρ- حريصا على هداية الخلق، قال تعالى: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة:128]، فلم يكن أعراضه عن الاعمى الفقير ترفعاً حاشاه سيد المتواضعين، بل مال -ρ- وأصغى إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف.

ولهذه السورة موقف أو حدث مع النبي -ρ- وهو: طلب كبار قريش من النبي أن لا يسوي بينهم وبين فقراء أو عامة المسلمين في المجلس أو على الأقل أن يجعل لهم مجلسا خاصا يجتمعوا فيه مع النبي -ρ-، والله -تعالى- نهاه عن ذلك، وقال: (وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) [الأنعام: 52]، وصفهم بالإخلاص والصدق فلا تطردهم من عندك يا محمد -ρ-، في آية أخرى: (وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) [الكهف: 28] عينك لا تفارقهم، لا تعرض عنهم، لا تنظر إلى غيرهم.

ولكن جاء كبار قريش وتوصل معهم النبي -ρ- بهذا الفكر الغالي إلى هذا الحل الوسط القريب: أن يجعل لهم مجلسا خاصا في بداية الأمر حتى يسلموا، فإذا أسلم هؤلاء دخلت مكة كلها في الإسلام، وبعد ذلك سادهم التواضع، كان هذا فكر النبي -ρ- وتخطيطه للأمر، لكن (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) [يوسف: 76]، كان علم الله أعظم، وكان علم الله أكبر، وكان منظور الله أبعد وأحكم، بينما النبي -عليه الصلاة والسلام- جالس مع هؤلاء ؛ بعث الله "عبد الله بن أم مكتوم" وهو رجل أعمى البصر، واختاره الله بهذه الصفة ليأتي إلى النبي -ρ-، وفي هذا التوقيت خرج من بيته خصيصا، وعانى مشاكل الطريق، وهو أعمى، حتى يصل إلى النبي -ρ-، وليس له هدف من خروجه هذا إلا أن يزداد في دين الله علما، وذهب يسعى بقلبه وهمته إلى تعلم الدين أكثر وأكثر، يقصد النبي -ρ-، ولا يقصد طريقا آخر، ولا مصلحة أخرى هذه فقط إلى العلم فقط. ومشيئة الله أن يكون أعمى حتى إذا وقف عند النبي -ρ- لا

يرى شغل رسول الله -ρ-، ولا يرى من يجالسه ولا في ماذا يجالسه فلا يقدر هذا التقدير ولا يقدر الأمر، لو كان غيره ممن يبصر لرأى الموقف هكذا قال النبي مشغول الآن أكلمه بعد ذلك... هكذا لكن هذا أعمى معه عذره لا يرى، فقال للنبي -ρ- يا نبي الله علمني مما علمك الله؟ أو بعبارة أخرى مما تعددت به الروايات، وقع النبي في حرج -ρ- فهو يكلم كبار قريش لو التفت عنهم إلى عبد الله بن أم مكتوم لنفضوا عنه وضاع هذا العمل الذي يرجو النبي -ρ-فأعرض عن عبد الله لأنه مسلم بالتأكيد إذا كلمه بعد ذلك وبين له سيتفهم ... أنزل الله -تعالى- هذه الآيات ليعاتب النبي -ρ- فيما فعل، وأن عبد الله بن أم مكتوم ذلكم الرجل الأعمى خير من ملئ الأرض من مثل هؤلاء الذين أبصروا بعيونهم، وعميت قلوبهم، فلا تلتفت عنه وعن مثله إلى مثل هؤلاء، عماه فيه فضيلة إنه يصبر عليه وينال به الجنة يوم القيامة، أما هؤلاء فعمى قلوبهم سيدخلهم النار ولن يؤمنوا بك يا محمد -ρ-.

قال ابن عثيمين: إلى آخرِ السِّياقِ تأديبٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ للخَلْقِ؛ أَلَّا يكونَ همُّهم همًّا شَخصيًّا، بل يكونُ همُّهم همًّا معنويًّا، وأَلَّا يُفَضِّلُوا في الدَّعوةِ إلى اللهِ شريفًا لِشَرَفِه، ولا عظيمًا لعَظَمتِه، ولا قريبًا لقُرْبِه، بل يكونُ النَّاسُ عندَهم سواءً في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ الفقيرُ والغنيُّ، الكبيرُ والصَّغيرُ، القَريبُ والبعيدُ.

قال السيوطي: فيه الحَثُّ على التَّرحيبِ بمَن يَطلبُ الهدى، والإقبالِ عليهم في مجالِسِ العِلْمِ، وقَضاءِ حوائِجِهم، وعدمِ إيثارِ الأغنياءِ عليهم.

قَولُ اللهِ تعالى: عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ⇦عَبَّرَ عن هذا الصَّحابيِّ الجَليلِ -الَّذي هو عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مَكتومٍ- بلَقَبٍ يَكرَهُه النَّاسُ، مع أنَّه قال: وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ [الحجرات: 11]؟

الجوابُ مِن وجهينِ:

■الأوَّلُ: أنَّ السِّرَّ في التَّعبيرِ عنه بلَفظِ: (الأعمَى) للإشعارِ بعُذرِه في الإقدامِ على قَطْعِ كلامِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو كان يَرَى ما هو مُشْتَغِلٌ به معَ صناديدِ الكفَّارِ، لَمَا قَطَع كلامَه.

■الثَّاني: جاء لَفظُ (الأعمى)؛ إشعارًا بما يُناسِبُ مِنَ الرِّفقِ به، والصَّغْوِ لِما يَقصِدُه؛ وتَرقيقًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليكونَ العِتابُ ملحوظًا فيه أنَّه لَمَّا كان صاحبَ ضَرارةٍ، فهو أجدَرُ بالعنايةِ به؛ لأنَّ مِثلَه يكونُ سريعًا إلى انكسارِ خاطِرِه.

■الثالث: في قَولِه تعالى: أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى دَليلٌ على جوازِ أنْ يُلَقَّبَ الإنسانُ بوصْفِه؛ مِثلُ: الأعمى، والأعرَجِ، والأعمَشِ، وقد كان العلماءُ يَفعلون هذا، فيقولون: رواه الأعرجُ عن أبي هُرَيرةَ، رواه الأعمشُ... وهكذا، قال أهلُ العلمِ: واللَّقَبُ بالعَيبِ إذا كان المقصودُ به تعيينَ الشَّخصِ -حيث لا يُعرَف إلَّا به- فلا بأسَ به، وأمَّا إذا كان المقصودُ به تعييرَ الشَّخصِ فإنَّه حرامٌ؛ لأنَّ الأوَّلَ: إذا كان المقصودُ به تبيينَ الشَّخصِ فإنَّه تدعو الحاجةُ إليه، والثَّاني: إذا كان المقصودُ به التَّعييرَ فإنَّه لا يُقصَدُ به التَّبيينُ، وإنَّما يُقصدُ به الشَّماتةُ.

الدرر السنية

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ ﴿3﴾

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى) أي: وما يُدْرِيك -يا مُحَمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى -الَّذي عَبَسْتَ وأعرَضْتَ عنه- يتَزَكَّى بما يتعَلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك؛ فيَتطَهَّرَ مِن ذُنوبِه. موسوعة التفسير

قال البِقاعي: (وَمَا يُدْرِيكَ أي: وأيُّ شَيءٍ يَجعلُك داريًا بحالِه وإن اجتَهَدْتَ في ذلك؟ فإنَّ ذواتِ الصُّدورِ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ تعالى).

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿4﴾

(أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى) أي: أو لعَلَّه يَتذَكَّرُ ما غَفَل عنه؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ. موسوعة التفسير

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى﴾ ﴿5﴾

(أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) أي: أمَّا الَّذي استَغْنى عن الإيمانِ والقُرآنِ بما لَه مِنَ المالِ والجاهِ. موسوعة التفسير

قال الواحدي: (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى قال ابنُ عبَّاسٍ: عن الله تعالى، وعن الإيمانِ، بما لَه مِن المالِ).

﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ ﴿6﴾

(فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى) أي: فأنت -يا مُحَمَّدُ- تتعَرَّضُ له، وتُقبِلُ عليه، وتجتَهِدُ في وَعْظِه؛ رجاءَ هِدايتِه للحَقِّ. موسوعة التفسير

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى﴾ ﴿7﴾

(وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى) أي: وأيُّ ضَرَرٍ عليك -يا مُحَمَّدُ- إذا لم يُسْلِمْ هذا الرَّجُلُ الَّذي استغنى، ويتطَهَّرْ من كُفْرِه وذُنوبِه؟ فلا تُبَالِ به، ولا تَكتَرِثْ بشأنِه؛ فإنَّه لا يَضُرُّك إثمُه، وليس عليك إلَّا البَلاغُ. موسوعة التفسير

فمن يشعر بالاستغناء عن الهداية، أو الذكر، أو رب العالمين، ويظن نفسه قادرا وغنيا، لن يستمع إليك لأنه مستغن بنفسه، والاستغناء لا يكون فقط بالمال، ولكن قد يستغني الانسان عن ربه بكل شيء، ويظن نفسه قادرا أن يسير في حياته بنفسه بغير حاجة لهدى من ربه للطريق المستقيم، وبغير حاجة للرزق المعنوي قوت القلوب، أو الحياة الطيبة التي لا تكون إلا بالقرب من الله.

قال -عز وجل-: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) [فاطر:15].

الأعمى سلب نور البصر، وعوضه الله بنور البصيرة، وكم من الناس لهم أعين لا يبصرون بها، بسبب الران الذي غطى قلوبهم، عقوبة لهم على ذنوبهم وإعراضهم.

قال تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) [الجاثية:23]

وقال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) [الاعراف:146].

وقال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) [الأعراف:179].

قال ابن عاشور: والمعنى: عدَمُ تَزكِّيهِ ليس محمولًا عليك، أي: لستَ مؤاخَذًا بعَدمِ اهتدائِه حتَّى تَزيدَ مِن الحِرصِ على تَرغيبِه في الإيمانِ ما لم يُكلِّفْك اللهُ به، وهذا رِفقٌ مِن اللهِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما قال تعالى: وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا [آل عمران: 176].

وقال سُبحانَه: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [النور: 54].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ [لقمان: 23].

﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ ﴿8﴾

(وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى) أي: وأمَّا هذا الرَّجُلُ الأعمى الَّذي جاءك -يا مُحمَّدُ- يَمْشي مُسْرِعًا مُجتَهِدًا في الوُصولِ إليك؛ طَلَبًا للعِلْمِ، وسَماعِ الحَقِّ. موسوعة التفسير

﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ ﴿9﴾

(وَهُوَ يَخْشَى) أي: والحالُ أنَّه يَخافُ اللهَ تعالى؛ لعِلْمِه بعَظَمتِه وشِدَّةِ عَذابِه. موسوعة التفسير

﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ ﴿10﴾

(فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى) أي: فأنت -يا مُحمَّدُ- تُعْرِضُ عن هذا الرَّجُلِ الحَريصِ على الحَقِّ، وتتشاغَلُ بدَعْوةِ ذلك الكافِرِ. موسوعة التفسير

قال البقاعي: فيه إشارةٌ إلى أنَّه يَجِبُ الاجتهادُ في تزكيةِ التَّابعِ الَّذي عُرِفَ منه القَبولُ.

قال ابن عطية: (قال كثيرٌ مِن العلماءِ وابنُ زيدٍ وعائشةُ وغيرُها مِن الصحابةِ: لو كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كاتمًا شيئًا مِن الوحيِ، لكتَم هذه الآياتِ، وآياتِ قصةِ زيدٍ وزينبَ بنتِ جحشٍ).

قال السعدي: (عَبَسَ): في وجهه (وَتَوَلَّى) في بدنه، لأجل مجيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ) أي: الأعمى (يَزَّكَّى) أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟ (أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى) أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل بتلك الذكرى. هذه فائدةٌ كبيرةٌ هي المقصودةُ مِن بَعْثةِ الرُّسُلِ، ووَعْظِ الوُعَّاظِ، وتَذكيرِ المذَكِّرينَ؛ فإقبالُك على مَن جاء بنَفْسِه مُفتقِرًا لذلك منك هو الأليقُ الواجِبُ، وأمَّا تصَدِّيك وتعَرُّضُك للغَنِيِّ المستغني الَّذي لا يَسألُ ولا يَستفتي؛ لعَدَمِ رَغبتِه في الخَيرِ، مع تَرْكِك مَن هو أهَمُّ منه- فإنَّه لا يَنبغي لك؛ فإنَّه ليس عليك ألَّا يَزَّكَّى، فلو لم يتَزَكَّ فلَسْتَ بمُحاسَبٍ على ما عَمِلَه مِن الشَّرِّ؛ فدَلَّ هذا على القاعِدةِ المشهورةِ، أنَّه: «لا يُترَكُ أمرٌ مَعلومٌ لأمرٍ مَوهومٍ،

ولا مصلحةٌ مُتحَقَّقةٍ لمصلحةٍ مُتوَهَّمةٍ»، وأنَّه يَنبغي الإقبالُ على طالِبِ العِلْمِ المفتَقِرِ إليه الحَريصِ عليه؛ أَزْيَدَ مِن غَيرِه.

والفقراء والمحتاجين وذوي الاحتياجات الخاصة، هم بحاجة للذكرى والتذكير بالقرآن والوعظ، وهذا إرشاد رباني في أهمية الحرص على مشاعر الآخرين، وإن كان عبد الله أبن ام مكتوم أعمى لا يرى عبوس رسول الله –ρ– ونهي عن ذلك صلوات الله عليه، ونزل في شأنه قرآن يُتلى إلى يوم القيامة، فكيف بمن ينظر إلى الناس بالازدراء والاحتقار وهم يبصرونه، فالواجب علينا أن ننتبه إلى أقوالنا وأعمالنا، في جميع الأوقات، ونتذوق الكلام قبل إخراجه من اللسان، ونضع أنفسنا مكان من نتعامل معهم ونرضى لهم ما نرضاه لأنفسنا.

وبأبي هو وأمي ونفسي صلوات الله عليه كان لهذا الصحابي مكانة عنده اختاره عليه الصلاة والسلام ليكون مؤذنا للصلاة مع بلال بن رباح لجمال صوته ونبرته القوية. فاحتلَ ابن مكتوم مكانة عالية عند رسول الله –ρ– واستخلفه الرسول الكريم على المدينة المنورة 13 مرة أثناء الغزوات، كما استخلفه كذلك في حجة الوداع، وهذا تشريف كبير لابن أم مكتوم من الرسول الكريم –ρ– و حدد لنفسه وظيفة في ساحات القتال، فكان يقول: أقيموني بين الصفين، وحملوني اللواء أحمله لكم و أحفظه ..... فأنا أعمى لا استطيع الفرار ....

كَلا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (11) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (12) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (13) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (14) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (15) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (16)

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ ﴿11﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال الرازي: كأنَّه قيل: هذا القُرآنُ قد بلَغ في العَظَمةِ إلى هذا الحَدِّ العظيمِ، فأيُّ حاجةٍ به إلى أن يَقبَلَه هؤلاء الكُفَّارُ، فسَواءٌ قَبِلوه أو لم يَقبَلوه، فلا تلتَفِتْ إليهم، ولا تَشغَلْ قَلْبَك بهم، وإيَّاك وأن تُعرِضَ عمَّن آمَنَ به تطييبًا لقَلبِ أربابِ الدُّنيا

(كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) أي: لا تَفعَلْ ما فعَلْتَ –يا مُحَمَّدُ–؛ فليس الخَيرُ في الإعراضِ عن المؤمِنِ الحَريصِ على الحَقِّ، والتَّشاغُلِ عنه بدعوةِ غَيرِه مِن الكُفَّارِ المكابِرينَ؛ إنَّ آياتِ القُرآنِ تذكيرٌ للنَّاسِ جميعًا. موسوعة التفسير

قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ أي: هذه السُّورةَ، أو الوَصِيَّةَ بالمساواةِ بيْنَ النَّاسِ في إبلاغِ العِلْمِ مِن شريفِهم ووضيعِهم).

■(كلا) هنا حرف ردع وزجر. قال السعدي: أي: حقا إن هذه الموعظة تذكرة من الله، يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، والأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ ﴿12﴾

(فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ) أي: فمَن شاء مِن النَّاسِ ذَكَر هذا القُرآنَ، فاتَّعَظَ واعتَبَرَ وعَمِلَ بما فيه. موسوعة التفسير

قال ابن كثير: (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ أي: فمَن شاء ذَكَرَ اللهَ في جميعِ أمورِه. ويحتملُ عَوْدُ الضَّميرِ على الوحيِ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه).

وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائِدًا إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ إعادةَ ضميرِ الغَيبةِ على اللهِ تعالَى دونَ ذِكْرِ معادِه في الكلامِ كثيرٌ في القرآنِ؛ لأنَّ شُؤونَه تعالَى وأحكامَه نَزَل القرآنُ لأجْلِها، فهو مَلْحوظٌ لكُلِّ سامِعٍ للقرآنِ، أيْ: فمَنْ شاءَ ذَكَر اللهَ وتَوَخَّى مَرْضاتَه).

⇦فيه تَعريضٌ بأنَّ موعظةَ القُرآنِ نافعةٌ لكلِّ أحدٍ تَجرَّدَ عن العِنادِ والمكابَرةِ، فمَن لم يَتَّعِظْ بها فلأنَّه لم يَشَأْ أنْ يَتَّعِظَ، وفيه ترغيبٌ في التَّذكرةِ، وحَثٌّ على حِفظِها. الدرر السنية

قال ابن تيمية: أنَّ العَبدَ فاعِلٌ على الحقيقةِ، وله مَشيئةٌ ثابتةٌ، وله إرادةٌ جازمةٌ، وقوَّةٌ صالِحةٌ.

من شاء الهداية هداه الله، ومن شاء زيادة الهداية زاده الله، أما من استغنى واكتفى تركه ربه لنفسه.

قال تعالى: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) [محمد:17]

وقال تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) [الصف:5].

⇦الانسان مخير إذا شاء الهداية هداه الله.

وقال تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) [الانسان:3].

وقال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) [الشمس:9-10].

كما قال الله تعالى: وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ [الكهف: 29].

وقال الله سُبحانه وتعالى: وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ [الحاقة: 48-49].

وقال الله عزَّ وجلَّ: إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا [المزمل: 19].

أركان الانتفاع بالمواعظ والقران والحديث:

قال الله –Y–: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق: 37]

أما الركن الأول: فهو صلاح القلب؛ لأنه محل الانتفاع بمعاني القرآن، قال – Y–: {لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ} فالذكرى لا تحصل إلا لمن صلح قلبه؛ لأنه هو المحل الذي تنزل فيه معاني الآيات، والبيت الذي تستقر فيه العبر والعظات، كما قال –Y–: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة:97]، وقال –Y–: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ} [الشعراء: 193 –194]، فجعل التنزيل على القلب لأنه محله، وقال –Y–: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} [محمد:24].

إذا قسى القلب لم تنفعه موعظة *** كالأرض إن سبخت لن يحيها المطر

وحياة القلب في أمرين:

■الأول: إسلامه وتوحيده، وهو أصل حياة القلب، كما قال -Y-: {لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ} فجعل غير الحي من الكافرين، فدل ذلك على أن حياته بالإسلام والتوحيد، كقوله (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).

■والثاني: دوام ذكره لربه، وهو الكمال الواجب لحياته، كما قال النبيّ -ρ-: " مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُهُ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ " [البخاري].

≡وأما الركن الثاني: فهو استعمال حاسة السمع في تلقي القرآن والمواعظ، كما قال -Y-: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} هذا شرط التأثر بالكلام "

⇦فكيف تريد أن تنتفع من القرآن، أو الأحاديث، أو الخطب، أو المواعظ، لتتغير حياتك، وتتبدل أوضاعك، وأنت غير مستمع لما فيه صلاحك وإصلاحك.

■وقد قال الله تعالى لنبيه موسى -υ- {فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى} [طه: 13].

■ووصف الله المؤمنين العاملين المنتفعين بالقول: بالاستماع له فقال: {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ} [الزمر:17-18].

■وأمر الله – تعالى – بالاستماع والانصات عند تلاوة القرآن حتى يقع تأثيره الموقع اللائق به كما قال – سبحانه: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: 204].

قال الطبري –رحمه الله –: " يقول: أصغوا له سمعكم، لتتفهموا آياته، وتعتبروا بمواعظه".

≡وأما الركن الثالث: فحضور القلب وشهوده وعدم غفلته وسهوه، كما قال -Y-: {وَهُوَ شَهِيدٌ}

قال ابن القيم – رحمه الله –: " أي شاهد القلب حاضر غير غائب".

قال ابن قتيبة: استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساه.

☜وسبب غياب القلب وانشغاله عن السماع النافع للقرآن والأحاديث والخطب والمواعظ هو تعلقه بالدنيا وسكره بملاذها وشهواتها، كما قال تعالى: {فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ} [النجم: 29 – 30]، فدل ذلك على أن مريد الدنيا غافل عن الآخرة.

قال يحي بن معاذ –رحمه الله –: " القلب قلبان؛ قلب محتشي بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد أحتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة ".

✍إعراض العبد عما فيه منفعته وصلاحه سبب شقاؤه، والله يقول: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى} [طه124 – 126].

وقال السعدي –رحمه الله –: " وأما المعرض، الذي لم يصغ سمعه إلى الآيات، فهذا لا تفيده شيئاً، لأنه لا قبول عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته ".

⇦الغافل عن سماع المواعظ والانتفاع بها يكون مآله الضياع والتفريط لمصالحه الدينية والدنيوية كما قال –Y-: {وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً} [الكهف: 28]، {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء:89].

قال السعدي: ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها ورفع قدرها:

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ ﴿13﴾

(فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ) أي: وهذا القُرآنُ الكريمُ مَكتوبٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ عِندَ اللهِ تعالى. موسوعة التفسير

﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ ﴿14﴾

(مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ) أي: وهي صُحُفٌ عاليةٌ، رفيعةُ المكانةِ والقَدْرِ، مُطَهَّرةٌ مِن كُلِّ دَنَسٍ وعَيبٍ. موسوعة التفسير

قال سُبحانَه: بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ [البروج: 21-22].

قال ابنُ جريرٍ: (في اللَّوحِ المحفوظِ، وهو المرفوعُ المطَهَّرُ عندَ اللهِ).

مرفوعة مطهرة، ترفعت الآيات عن الدخول في قلوب المعرضين، وأبت إلا الدخول في القلوب السليمة المطهرة.

قال السعدي: (مَرْفُوعَةٍ) القدر والرتبة (مُطَهَّرَةٍ) [من الآفات و] عن أن تنالها أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي (بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) وهم الملائكة [الذين هم] السفراء بين الله وبين عباده.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ ﴿15﴾

(بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) أي: وهذه الصُّحُفُ المكتوبُ فيها القُرآنُ هي بأيدي طائِفةٍ مِنَ الملائِكةِ. موسوعة التفسير

وقال ابنُ عثيمين: (هذا لأنَّهم سُفَراءُ بيْنَ اللهِ وبيْنَ الخَلقِ؛ فجِبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ واسِطةٌ بيْنَ اللهِ وبيْنَ الخَلقِ في النُّزولِ بالوَحْيِ، والكَتَبةُ الَّذين يَكتُبونَ ما يَعمَلُ الإنسانُ أيضًا يَكتُبونَه ويُبَلِّغونَه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، واللهُ تعالى عالِمٌ به حينَ كتابتِه وقبْلَ كِتابتِه).

⇦هذه الآيات فسرها المفسرون أنهم الملائكة، ولكن لكل صاحب قلب سليم مطيع لربه نصيب منه فكلمة سفرة هي من كلمة سفر فهم الغرباء المسافرون في الدنيا والذين يعيشون فيها على هذا الأساس.

قال ابن عاشور: قال تعالى بِأَيْدِي سَفَرَةٍ في وصْفِهم بالسَّفَرةِ ثناءٌ عليهم؛ لأنَّهم يُبلِّغونَ القُرآنَ للنَّاسِ وهم حُفَّاظُه ووُعاتُه، فهذا معنى السَّفَرة، وفيه بِشارةٌ بأنَّهم سيَنشُرونَ الإسلامَ في الأُممِ. وذلك على أنَّ المرادَ كُتَّابُ الوَحْيِ مِن الصحابةِ.

كما قال تعالى: إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ [الواقعة: 77 - 79].

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ ﴿16﴾

(**كِرَامٍ بَرَرَةٍ**) أي: وأولئك الملائِكةُ ذَوُو خَلْقٍ حَسَنٍ شَريفٍ، وأخلاقٍ حَسَنةٍ جَميلةٍ، كثيرو الخَيرِ والطَّاعةِ والإحسانِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (كِرَامٍ) أي: كثيري الخير والبركة، (بَرَرَةٍ) قلوبهم وأعمالهم.

الغالبُ في اصطلاحِ القُرآنِ أنَّ البَرَرَةَ الملائكةُ، والأبرارَ الآدَميُّونَ؛ لأنَّ (بَرَرَةً) أبلَغُ مِن (أبرارٍ)؛ إذ هو جمعُ بَرٍّ، وأبرارٌ جمعُ بارٍّ -على قولٍ-، وبَرٌّ أبلَغُ مِن بارٍّ، كما أنَّ عَدْلًا أبلَغُ مِن عادلٍ.

⇦وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلا، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورا.

عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَثَلُ الَّذي يَقرَأُ القُرآنَ وهو حافِظٌ له: مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، ومَثَلُ الَّذي يقرَأُ وهو يَتعاهَدُه، وهو عليه شَديدٌ؛ فلَهُ أجْرانِ)) رواه البخاري.